

## الفصل الخامس

### فى أن الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم وبيان السبب فى ذلك

وإنما كانت الفلاكة ألصق بهم غالباً من غيرهم لأمر - منها أن الإمارة عنهم بعزل والتجارة مبنية على السفسفة والماحلة<sup>(١)</sup> والآمال التى لا يقوم دليل على وقوعها والفلاحة والصناعة يلزمهما المهانة والتلوث برذائل الخيل الدنيوية وأهل العلم لهم أنفة واستتكاك عن ذلك فيقعدون عن الاكتساب متعللين بالأمانى الكاذبة فيقعون فى الفاقة والإملاق - ومنها أنهم يحسنون ظنونهم فى الناس على مقتضى ما يتوهمونه فى أنفسهم من استحقاقها لذلك ويبنون على ذلك ربيعاً ويحاولون منيعاً والناس لا سيما أهل عصرنا لا يقيمون لعلومهم ومعارفهم وزناً فيبنون ظنونهم على شفا جرف هار وتأتى الحوادث بنيانهم من القواعد فتجثه ويعودون بآمال خاسرة وظنون كاذبة - ومنها أنهم لاعتيادهم القواعد الكلية والخوض فى الأنظار الدقيقة يطردون معظم الأشياء كلياً حرماناً وحصولاً ويقيسون الأشياء على أشباهها على طريق قياسهم الفقهى ويلحقون بعض الوقائع ببعض على سبيل إلحاق النظر بالنظر والقياس التمثيلى . والقضايا وإن ناسبت أو تساوت من وجه فقد تختلف من وجه آخر أو من وجوه آخر تخفى على غير المهرة فى أحكام الدنيا ودقائقها أو لخصوص فى المادة أو لوجود مانع أو فوات شرط أو لكون تلك القاعدة المأخوذ منها حكم ذلك الفرع ليست كلية فى نفسها بل أكثرية وذلك الفرع من غير قسيم الأكثر وهم عن ذلك كله غافلون والقواعد العلمية التى يعرفونها

(١) ماحلة ماحلة ومحالاً قاراه حتى يتبين أيهما أشد اه قاموس والغرض أن التجارة مبنية

على المماكة .

تقضى عليهم بتصحيح الأقيسة والوثوق بها فيطردون معظم الأشياء كلياً حرماناً وحصولاً تأليفاً وتنفيراً تقريباً وتبعيداً إهمالاً مراعاة فيخبطون لذلك خبطاً عظيماً ويخطئون السياسة أصلاً ورأساً والكيس من العامة والهمج لا يعرف الكليات ولا الأقيسة والعمل بها ولا إلحاق الأشياء بنظائرها ولا قياس العكس والخلف والملازمات فينظر في الجزئي الذي هو بصدده نظراً خاصاً غير مشوش بما يفسده ويتفقه فيه مانعاً وعائقاً ويجسره على ذلك صحة الجزم وعدم التردد وما ينشأ من كثرة الاحتمالات من الفتور والتوانى وضعف العزيمة فتنجح مساعيهم ويصيبون فى ظنونهم غاباً - ومنها أنهم لبعد غورهم وغوصهم يفرضون محتملات بعيدة ويجزمون بوقوعها وثوقاً منهم بظنونهم وافتناناً بأنفسهم وما من شيء إلا ويطرقة الاحتمال المثبط عن إمضائه واستقامته فيتخلفون لذلك عن مظان الخير والتعرض لتنفيسات الدهر وغشيان أهل الجاه فيقعون فى الفلاكة والإهمال - ومنها وهو مختص بأصحاب علوم الأوائل من الحكمة والفلسفة والطبيعة والمنطق والجدل والطب وكلام الأقدمين والتصوف الممزوج بالفلسفة والمتبحرين فى التشكيكات والشب وعلى الجملة فمن تضلع من هذه العلوم وحدها ولم يكن له خدمة لما فى الكتاب والسنة من الأحكام والمعارف ولا تضلع من الفقه ولا نظر نظراً تاماً فى كلام العلماء الكبار المتشريعين فإنه يخرج بهاء الشريعة وجلالها ومهابتها وتعظيم ما فيها من قلبه فيسترسل فى اللذات محرمة كانت أو جائزة رذيلة خسيصة كانت أو غير منفرة ويستثقل الإتيان بالمأمورات فيتركها طلباً للراحة والدعة وأرزاق العلماء مبنية على التماس بركتهم والاستنجاح بأدعيتهم وترفيعهم عن رذيلة الاحتراف والاكْتساب الجائزين فمتى لم يرفعوا أنفسهم عن الرذائل المجرمة ولم يكن لدعائهم عمل صالح يرفعه ولا على شمائلهم شواهد البركة انكف الناس عن إسعافهم بمرادهم أخذوا فى طعنهم وتنقيصهم وربما رموهم بالزندقة والإلحاد

فتستحكم الفلاكة فيهم والفلاكة كالبرص في الجسد تنتشر فيه وتسرى وتزيد  
 ما لم تجد دواءً حاسماً مانعاً له من السريان - ومنها وهو مختص بأصحاب  
 علوم الأوائل أيضاً أنهم يرون أن لا كمال إلا التحلى بالمعارف والاطلاع على  
 النكات والحقائق والوقوف على الأسرار والدقائق وأن الكمالات الخارجانية من  
 المال والجاه خيالات باطلة لا كمال فيها ويمكن أخذ ذلك والاستدلال عليه  
 بقول عز الدين الحسن بن محمد الأربلي الضرير الفيلسوف:

كامل حقيقتك التي لم تكمل	والجسم دعه في الحضيض الأسفل
أتكمل الفانى وتترك باقياً	هملاً وأنت بأمره لم تحفل
الجسم للنفس النفيسة آلة	ما لم تحصله بها لم يحصل
يفنى وتبقى بعده في غبطة	محمودة أو شقوة لا تنجلي
أعطيت جسمك خادماً فخدمته	ونسيت عهدك في الزمان الأول
ملكك مع كمالك ناقصاً	أتملك المفضول رق الأفضل

ويقول أبى الفتح البستى والغزالي رحمه الله كثير اللهج به فى كتبه:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته	وتطلب الريح مما فيه خسران
عليك بالنفس فاستكمل سعادتها	فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ويقول الفارابى محمد بن محمد بن طرخان الفارابى المتوفى سنة ٣٣٦:

أخى خل حيز ذى باطل	وكن للحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا	وما المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على	أقل من الكلم الموجز
وهل نحن إلا خطوط وقعن	على نقطة وقع مستوفز

محيط السموات أولى بنا فماذا التنافس فى المركز  
وإذا كان الكمال الجارجانى متلاشياً فى أنظارهم على ما تقرر فهم لا  
محالة لا يعطون له بالا وهو لعسره لا يتم مع الفكرة فى تسميره فكيف مع  
إهماله وعدم الاعتناء به وإلقائه وراء الظهر - ومنها أن العلوم خرجت عن  
كونها حرفاً وصناعة من الصناعات بعد مصيرها صناعة من قبل على ما  
سيجئ تحقيقه والاستدلال عليه فى الفصل السادس بعد هذا الفصل وإذا كان  
كذلك فكيف العمل على شريعة منسوخة والوصول بسلوك سبيل قد سد  
والاستضاء بمصباح قد طفئ - ومنها أن رواج العلماء إنما هو لعلمهم كما أن  
رواج أرباب الحرف إنما هو لحرفهم ولكن العلم بطيء الحصول وليست كل  
الطباع تقبله والجزء الغالب عليه الوهب من الله لا الكسب فطائفة من العمر  
تنقضى فى تحصيل متنه وطائفة من العمر ثانية تنقضى فى تصويره وأخذه عن  
الشيخ وطائفة ثالثة فى تحقيقه ثم بعد ذلك كله فصفة العلم ليست من  
الصفات المحسوسة الظاهرة كالحسن والقبح ولا بما يدخله الكمية والمقدار  
المحسوس ليعرف التفاضل يفه بالذراع والشبر وقياس أحد المظلومين على  
الآخر ولا الدال على صفة العلم وهو البيان والنطق ظاهراً مكشوقاً لكل أحد  
كالشجاعة التى يعرف بها القوى من الضعيف بالافتراس والإلقاء على الأرض  
وكالإجادة فى المصنوعات المرئية المشاهدة بل صفة العلم من الصفات النفسانية  
والكمالات الحاصلة بقوة النفس الناطقة والقوى الباطنة فهى قابلة للجحد  
والإنكار والمدافعة والتغطية عليها عند أهلها وقابلة أيضاً لأن يدخل فيها غي  
أهلها بالتلبيس والتصنع والتمويه والجاه ويعين على خفاتها وجهل الناس  
بمكانها من صاحبها وقبولها للتصنع والتمويه أن العلم مستدع لفاهمة وحافظة  
وقل أن يجتمعا فى شخص وذلك لما أن القوة الحافظة من مقدم الدماغ والقوة

الفاهمة مما يلي مؤخر الدماغ في وسطه ويقدر كمال إحداهما بموادها تنقص الأخرى لتقابل المكاين وإن شئت قلت أن البطن المؤخر من الدماغ محل الاسترجاع والتذكر والبطن المقدم محل التخيل ويقدر كمال إحداهما بموادها تنقص الأخرى لتقابل المكاين أو لأن الفهم يستدعى مزيد رطوبة في الدماغ والحفظ يستدعى مزيد يبوسة والجمع بينهما محال كما قاله الإمام فخر الدين الرازي في كتابه المصنف مزيد يبوسة والجمع بينهما محال كما قاله الإمام فخر الدين الرازي في كتابه المصنف في مناقب الشافعي ناقلا له عن الحكماء . وإن من العلماء من له قلم وكتابة وليس له بيان ولا جدل لأن مزاجه يتغير بالممارسة والمدافعة غضباً أو حياءً ويضيق قلبه انفعالا عن ذلك فيحصل الحبسة في لسانه بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه أو لعدم دفته<sup>(١)</sup> ومهارته بالبحث أو لعيه وحبسته أو لأن في العلم والكتابة ستعانة على تشييع القوة النفسانية وضبطها عن التشتت وهذا مستمد مما ذكره الحكماء في كتبهم من أن نفوس الكهان لما ضعف استعدادها تشبث بأمور جزئية تكون مشبعة لها وممانعة من تشتها كالسجع ورؤية الماء وسنوح سانح . ومنهم من له بيان وجدل ولا قلم ولا كتابة له إما لفصاحته مع عدم وقوفه على حقائق العلوم وإما لفساد تراكيبه إهمالاً واحتراراً وإن كان واقفاً على حقائقها والقلم يضبط العيوب ويكون شاهداً عليه بخلاف العبارة لا مكان المكابرة والاعتذار فيها وإمكان تغييرها عند المضايقة وإما لدرسته ومهارته في البحث وحسن انتقاله فيه وتغطيته على جهله وقلة مبالاته . وإن من العلماء من يزيد علمه على عقله فلا يحسن الغطاء على مجهولاته ولا الاعتذار عنها مع أن مجهولات الإنسان أكثر من معلوماته بل لا نسبة لمعلوماته إلى مجهولاته . ومنهم من يزيد عقله على

(١) الدرية بالضم هي الضراوة والاعتقاد على الشيء والحبسة بالضم تعذر الكلام عند إرادته والمعنى العجز عن النطق اهـ ملخصاً من القاموس .

علمه فيضع الأشياء في حاق<sup>(١)</sup> مواضعها ويضيف إليها رونقاً وبهاءً وتهويلاً وتوهيماً. وإن من العلماء من له صوت لإهماله والبكاء صغيراً لفقر أهله أو لتسليط البكاء عليه في المهذ والمخارج رطبة لينة فيفتح العياط لهواته وتتسع مجارى صوته وتتصلب أوداجه. ومنهم من لا صوت له لعدم ذلك ومن لا صوت له مغلوب عاجز عن المباحثة حتى أن بعض الناس علمه صوته وفخره نعمة وما أحق هذا المقام بقول القائل:

فقلت لمحمد لما التقينا تنكب<sup>(٢)</sup> لا يقترك الزحام

وإن من العلماء من له علم بلا جاه ولا وجاهة فلا يمكنه المقاومة وتلثم لسانه ويتغير للإجلال ويدافعه الوهم ويقول فلا يلتفت إليه أو يرد عليه رداً جاهياً تقبله العامة ولله در القائل:

إذا التقى الخيل في معسكرها فكيف حال البعوض في الوسط  
والقائل:

حياة بلا مال حياة ذميمة وعلم بلا جاه كلام مضيع

ومنهم من له جاه وحاله في ذلك ظاهر لا يحتاج إلى الكلام عليه. وإذا تقرر لك ذلك كله علمت أن العلم أقبل شئ للخفاء والجحد والتلبس والتصنع وكيف الرواج بحرفة مجحودة أو خفية أو يشارك فيها بالتلبس والتمويه - ومنها أن ما في أيدي الناس إنما هو ثمرة أموالهم وتكسبانهم بأعمالهم حتى لو فرضنا شخصاً خالياً من المال والتكسب لم يكن إلا شحاذاً

(١) في القاموس وحق الجوع (أي بتشديد القاف) صادقه ورجل حاق الرجل وحق الشجاع وحقتهما كامل فيها اهـ.

(٢) أي اعدل عن طريقي لنا تصرعك مزاحمتي اهـ.

مكدياً وعلى قدر احتياج الناس إلى نوع ذلك المال ونوع ذلك التكسب يكون نفاقه بينهم ويقدر<sup>(١)</sup> نفاقه تعظم ثروة صاحبه وغناه فلذلك لا تعظم ثروة أصحاب منصب القضاء والفتوى والتدريس غالباً وذلك لعدم احتياج جمهور الناس إلى ما بأيديهم احتياجاً لازماً لا مندوحة عنه لما أن الأمور المفتقرة إلى القضاء تنفصل بغير قضاء تارة لرجوع المبطل عن عناده لوازع دين أو عار أو خوف مترقب أو نحوها وتنفصل بالسياسة وبوجوه الناس تارة أخرى ولما أن العلوم مباينة لطبائع البعض ومهجورة عند البعض ومستقلة على البعض.

---

(١) النفاق بالفتح رواج الشيء وبالكسر المداهنة والخذاع ومراد المؤلف الأول كما هو واضح اهـ.